قراءة في الخطاب الشعري الجزائري الحديث ديوان (النصر للجزائر) للشاعر أبو القاسم سعد الله

Reading in the modern Algerian poetic discourse Diwan (victory for Algeria) To the poet Abu Qasim Saad Allah

أ. صلاح الدّين يحي
جامعة مولود معمري- تيزي وزو(الجزائر)
Salahyahia299@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/02/16 تاريخ القبول:2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/04/01

ملخّص البحث:

أدى الخطاب الشعري المغاربي الحديث دوره البطولي الكبير في تحريك الجماهير ودفعها لنصر الثورة، واحتضان الأمل في التحرّر والتطلع إلى آفاق حياة أفضل، ليتجسد الشّعر المغاربي الحرّ عموما والجزائري خصوصا بأنّه انعكاس لمظاهر الكون وتعبيرا عن النفس البشرية المتقلبة وصراعها في هذا الوجود؛ فإنّ الشّعر المغاربيّ الحديث هو انعكاس لهذا الكون، والأدب تعبير عن هذه النفس الثائرة.

وضمن هذا السّياق تحاول هذه الدراسة أن تستعرض دعائم الرؤية التحرّرية، وكذا تجليات الثقافة الفكرية في الشعر المغاربي الحرّ في فكر وأدب الشاعر الناقد أبو القاسم سعد الله الّذي يعدّ واحدا من أبرز أعلام هذا الأدب الحديث، وأبرز الرواد لفكر الحركة التحرريّة في الشعر المغاربي وفي الشعر الجزائري خصوصا مركزا على رسوخ هذا الفكر في الخطاب الشعري المغاربي الجديد الّذي يحيي الجمود الفكري والسياسي والثقافي والتاريخي إلى ترسيخ مقومات الأمّة وثوابتها من خلال مخاطبة الذات الجزائرية وتذكيرها بماضيها التليد وربطها بخصوصيات عمقها الحضاري والثقافي والتّراثي.

الكلمات المفتاحيّة: الخطاب الشعري؛ الشعر الجزائري الحديث؛ الثقافة الفكرية في الشعر المغاربي الحرّ.

Summary:

The modern Maghreb poetic discourse led to the great heroic role in mobilizing the masses and pushing them to victory of the revolution, embracing the hope of liberation and looking forward to a better life. The Maghreb poetry is generally free and Algerian especially as a reflection of the manifestations of the universe and expression of the volatile human soul and its struggle in this existence; Modern Maghreb poetry is a reflection of the universe, and literature expresses this rebellious soul.

In this context, this study attempts to review the foundations of the liberal vision, as well as the manifestations of the intellectual culture in the free Maghreb poetry in the thought and literature of the critic poet Abu Qasim Saadallah, who is considered one of the most prominent figures of modern literature and the pioneer of the liberal movement in Maghreb poetry Especially focusing on the consolidation of this thought in the new Maghreb poetry discourse, which revives the intellectual, political, cultural and historical stalemate to consolidate the foundations of the nation and its constants by addressing the Algerian self and reminding it of its past and linking it to the specificities of its cultural, cultural and heritage depth.

key words: poetic speech; Modern Algerian poetry; Intellectual culture in the poetry of the free Maghreb.

مقدّمة:

حظي الخطاب الشعري الجزائري المغاربي الحديث باهتمام الدارسين والباحثين، في كلّ مناحي المجالات الفكريّة والخصائص الفنّية والمستويات اللّسانيّة والمقاربات الأدبيّة، ولقي بينها رواجاً وانتشاراً مُلفتا للانتباه؛ حيث فرض نفسه في الذاكرة المغاربيّة ضمن التّراث الشعري المغاربي، والأدب الوطني، وأكثر من ذلك ضمن الإبداع العالمي ليتجاوز بذلك الإنتاج المحلي، هذا الإبداع الّذي استفز الأدباء واستفسر النقاد واستقطب وجلب الباحثين والدارسين من كلّ فئات العالم، وعلى مستوياتهم المختلفة، فيلجون أبوابه ويقتحمون أسواره فتمكنوا من الإفصاح عن جمالياته وفنياته، وتقنياته الخفية في أتون خطابه الشعري، ليبرز بذلك المضامين الفكرية والمناحي التعبيرية والقوى الخفية في الخطاب الشعري المغاربي.

ولعل السؤال الكبير المثير للجدل كما يطرح ذلك الشاعر المغاربي الجزائري أبو القاسم سعد الله في ديوانه (النصر للجزائر) تطلعات الشعوب المغاربيّة، ووحدة المسارات الفكرية للمجتمعات المغاربيّة من أجل الدفاع على قضية محورية ملحمية واحدة، تعبر عن نزعة وطنية في الأدب الوطني، تسعى من خلالها الشعوب والمجتمعات إلى فرض الذات المغاربيّة، الّتي رأى معظم المؤرخين بأنّها مزيج بين ما هو مستورد من المشرق العربيّ، وما هو مستورد من المضامين الفكريّة العالميّة، وفي وقت آخر يراهن أبناء المغرب العربيّ، وغيرهم من الباحثين الآخرين أنّ هذا الإنتاج وليد الإبداع المغاربيّ الخالص لا هو من هذا، ولا هو من ذاك؛ فهو وليد النزعة الوطنيّة المغاربيّة والأدب الوطني ينقل صوّر وتصوّرات متطوّرة عبر مختلف الأمكنة وتفاوت الأزمنة فصار تاريخا إنسانيا معبرا (تاريخ الجزائر الحديث) و(تاريخ الجزائر الثقافي) عن عمق الإنسان المغاربيّ وحضارته في كلّ زمان ومكان، ومن هنا بات الشعر سجلا تاريخيا حافلا بمسرّات الأقوام وثوراتهم وانتصاراتهم كما هو في ديوان (النصر للجزائر) الّذي يعبر عن نزعة وطنيّة مغاربيّة واكب فيها الإنسان الجزائري حضارته الثورية، ونزعته الوطنية المغاربيّة النقديّة والأدبيّة.

ومحركه الأساسي في شعوره وتفكيره اللّساني، وحدة تصوّر أمالي اتحاد الشعوب المغاربيّة وتطلعاتها، فيزع الشعر أحاسيس الوحدة المغاربيّة بين دول المغرب العربيّ لا ينفك عضو منه عن الآخر فيتحد جسده في الوحدة المغاربيّة، فيقول أبو القاسم سعد الله:

باسم هؤلاء
باسم قرابين الحرية في ثرى، أوراس
وجرجرة، والونشريس، والأطلس
باسم الأرض الثائرة، المتمردة على النار
والقيود، والسّياط
باسم الجزائر إلى الفجر... إلى النّصر الأكبر
باسم هؤلاء جميعاً كتبت قصائدي

وإليهم جميعا أقدمها في عناق
الحرية الأبدي.[1]

فأشعلت ثورة نوفمبر وحدة عربيّة مغاربيّة بَيَّنَ فيها الشاعر المغربيّ العربيّ التحام الشعوب المغاربية من أجل نيل الحرية الأبدية، وإطلاق العنان للتعبير عن الذات المغاربيَة وتطلعاتها ونزعتها العربيّة الإسلاميّة الوطنيّة.

وبيَّنَ الخطاب الشعري المغاربي أنّه شعر لا يزال خالدا في ذاكرة الشعوب، يعبر عن أحاسيس صادقة لا تفتقد أثرها على النفوس لتحكي ماضي الشعوب، وتصوّر معاناة وأزمات خلّدها التاريخ في وحدة مغاربيّة، ومن هذا المنطلق يتساءل الشاعر "هل إذا ما تقادم العهد بالشعر يفتر ويفقد حرارته فلا يعود يثير ويمتع كما كان يثير ويمتع يوم إن كان جديدا، قضية لا نحسب أن هناك اجماعا حولها بين النقاد ومتذوقي فنَّ الشعر قضية تسترعي الانتباه.

غير أنّه يمكننا أن ندعي بأنّ هناك شعرا لا يعتريه القدم والذبول بل يظل محتفظا برونقه وجدّته مهما طال عليه الزمن، ونعني به **الشعر الصادق الإحساس المعبر عن انفعال إنساني عميق بأدوات قادرة على توصيل ذلك الإحساس**، وهذا الانفعال إلى الآخرين، وليست هذه الأدوات إلاّ ما اصطلح عليه الناس باللّغة والموسيقى الشعريّة والصورة والخيال؛ فإذا ما توفرت هذه العناصر في شعر ما فإنّه لن يخضع لقوانين الفناء بل سيكون شعرا حيا خالدا وجديدا على الدوام."[2] إذن الشعر المغاربي هو صورة حية في نفوس الشعوب المغاربيّة لا لأنّه فقط يعبر عن روح هذه الشعوب الجديدة بل يجمع بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها بكلّ أزمنتها وأمكنتها.

ولعلّ الشعر الجزائري بالخصوص كجزء كبير لا يتجزأ من الوحدة المغاربيّة فإنّه حمل من تيار التجديد والنزعة الوطنية المغاربيّة ما يميزه عن الشعر المغربيّ بعمومه، بأنّه شعر جزائري خالص، وأنّه شعر سار على نهج الحركة الشعريّة الحداثية مع الشعراء الجزائريين المحدثين، الّذين أرادوا الانتفاض والثورة من قيود الوزن والقافية ومن قيود الحركة الاستعمارية إلى التحرّر، ومن الاختلافات القائمة حول هذه المسألة بين النُّقاد والأدباء من يرى أنّ أوّل شعرائنا الّذين أدخلوا هذا النوع من الشعر إلى الجزائر رمضان حمود، وقال آخر عبد الكريم العقون أول من حاول في الشعر الحرّ، ورأى فريق آخر أنّه أول من حرر الشعر من قيود الوزن والقافية هو أبو القاسم سعد الله وكما يبلغنا هو بذلك فيقول: "وهناك قضية أخرى أحب أن أشير إليها ولو باختصار، وهي أولية الشعر الحر في الجزائر بعض النقاد عندنا فيمن هو الأول شعرائنا الّذي أدخل هذا النوع من الشعر إلى الجزائر فذهب بعضهم إلى أن رمضان حمود أول من جرب الشعر المنثور، وقال آخر أنّ عبد الكريم أول من حاول الشعر المقطع، ورأى فريق آخر أنّني أول من حرّر الشعر من قيود الوزن والقافية، ولكني أحب أن اطمئن الجميع بأن هذه القضية نسبية كذلك فإنّ الأوليّة فيها ليست مطلقة هناك من الشعراء من سبقني إلى الطريقة الحرة، ولكنه لم يتح له أن ينشر تجربته وقد توجد ظروف تسمح لهذا الشعر بالإظهار ولآخر بالإقبار، ولولا ظروف معينة ما نشرت قصيدتي (طريقي) في جريدة البصائر المحافظة وهي القصيدة الّتي اعتبرت عند فريق من

النقاد الأولى من نوعها في الشعر الجزائري الحرّ، واذكر أنّني شخصيا نظمت عدة قصائد قبل (طريقي) وارسلت بها للنشر فلم تنشر لأنّ القائمين على الجريدة عندئذ رأوا فيها خروجا عن المألوف، ولعلّ غيري حاول النشر بينما أنا حاولت إلى أن نجحت."[3] وبهذا يترجح لنا أنّ أول من أدخل حركة الشعر الحرّ في الأدب الجزائري أبو القاسم سعد الله؛ فهو يبين بدليل مباشر أنّه لم يسبق لنشر الشعر الحر قبله، فهو أول من نشر قصيدة كتبت بالشعر الحر، وبَيَّنَ من خلالها مظاهر التجديد في الخطاب الشّعري الجزائري المغاربي في قصيدته (طريقي) الّتي نشرها في مجلة البصائر، وقد سبق له قبلها محاولات النشر بقصائد أخرى ورفض له ذلك؛ لأن أعضاء المجلة لم يكونوا على علم بهذا النمط الجديد من الحركة الشعريّة المغاربيّة الجزائرية الجديدة.

والواقع أنّه قبل التسليم بصحة هذا الرأي، ينبغي ألاّ نغفل تلك المحاولات الرائدة الّتي سبقت تجربة سعد الله أو صاحبتها مثل تلك التجربة الّتي كتبها رمضان حمود في 1928م، وإذا كان الاعتبار الّذي من أجله تميز قصيدة (طريقي) هو إشكاليته الموسيقية فإنّ قصيدة (يا قلبي) هي الأسبق؛ فإنّ الاعتبار الّذي جعل أبو القاسم سعد الله الرائدة في حركة الشعر الحرّ في الجزائر هو نشر قصيدته (طريقي) في مجلة البصائر بتاريخ 23 مارس 1955م. والحقيقة أنه إذا لم يسبق أبو القاسم سعد الله بمثل هذا العمل لما نشر له في مجلة البصائر"[3].

وهناك دليل آخر يبين أسبقية الشعر الحرّ المغاربيّ على لمستوى العالم العربيّ، فيبين محمّد ناصر ذلك قائلا: فإنّ ما يعطي قيمة لنظريات رمضان، وتجربته في هذا الصدد؛ هو كونها من التجارب المتسمة بالسبق والريادة بالنسبة للعالم العربيّ."[4] فإنّ قصيدة رمضان حمود (يا قلبي) تجربة شعرية تتميز هي الأخرى بكونها قصيدة متعدّدة الأوزان متغيرة القوافي... ولقد كتب رمضان هذه التجربة بعد سلسلة من المقالات الواعية الّتي تناول فيها بالنقد الموضوعي واقع الشعر العربيّ، ودعا فيها إلى عدم اتخاذ الوزن والقافية ضرورة من الضرورات اللازمة للشعر، وإنّما يجب أن يكون المقياس هو **الصدق الفنّي** حتّى ولو جاء ذلك في قالب نثري.

وهكذا ظلت هذه الدعوة المبكرة، بدون أن تترك أي أثر يذكر فهي من هذا الجانب تعتبر (ظاهرة متفردة في تاريخ الشعر الجزائري الحديث.

ومهما تتعدّد الأقوال حول أسبقية قصيدة ظهرت في الجزائر من الشعر الحرّ فإنّ الّذي لا تتعدّد حوله الأقوال هو أنّ الشاعر الجزائري الوحيد الّذي اتجه إلى هذا الشعر عن وعي، واقتدار وحاول التجديد في الإشكالية الموسيقية للقصيدة وبنيتها التعبيرية؛ هو أبو القاسم سعد الله في حين ظلت محاولات الشعراء الجزائريين الآخرين من أمثال: محمّد الأخضر عبد القادر السائحي فقد كتب أوّل قصيدة من الشعر الحرّ تحت عنوان (حنين) في سنة 1935م ولكنه لم ينشرها آنئذ. والطاهر بوشوشي، والغوالمي وأبو القاسم خمار الّذي كتب أول قصيدة من الشعر الحرّ بعنوان (الموتورة) مؤرخة بسنة 1954م، وكلّ هذه المحاولات متسمة بالتذبذب والتردد، فإنّ أغلب تلك التجارب كانت إلى الشعر العمودي أقرب منها إلى الشعر الحرّ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ التاريخ على حد تعبير سعد الله لا يبدأ بقطعة أو محاولة ولكنه يبدأ بحركة أو تيار، ولا شك أن ما يراه

بعض الباحثين هو الأول قد يجد باحث آخر من سبقه في محاولات أخرى أما إذا كان التاريخ بحركة أو تيار، فإنّ الرأي يظل دائما سليما حتى ولو اكتشفت بعض المحاولات المعزولة..."[5]

أولا: **الحركة الشعريّة المغاربيّة الجديدة في الخطاب الشعري الجزائري:** تجلّت مظاهر التجديد في الخطاب الشّعري المغاربي الجزائري على نمط الحركة الشعرية للشعر الحرّ في المشرق العربيّ، وليس فقط على مستوى المشرق العربيّ بل على مستوى عالمي كما حدث ذلك في أوروبا على يد الشاعر بودلير في قصيدة القطط، وعلى هذا تبيَّن أن الحركة الشعرية المغاربية عموما والجزائرية خصوصا أنّها لم تكن بمنأى عن التجديد والتغيير السائر على المستوى العالمي.

يقول بلقاسم سعد الله: "إن تجربة الشعر الحر (وغيرها من التجارب) لا تقاس أوليتها بنموذج واحد أو نحوه ولكن بتعدّد النماذج، واقتناع نفسه بها ومحاولته الاجادة فيها، ذلك أن التجربة قبل كلّ شيء «اختيار» والاختيار يقتضي الالتزام الّذي يعني بدوره الايمان بالتجربة، ومحاولة اتقانها والمساهمة في اثرائها اما اكتفاء أحد الشعراء بنموذج واحد او نحوه من غير مألوف الشعر (سواء كان منثورا أو مقطعا أو حرا) فيعتبر في نظري نوعا من التنطع بل ضربا من الجبن الأدبي قد يكون أخطر من الجبن الأخلاقي والعسكري."[6] ولعلَّ ما يميز الحركة الشعرية الجديدة المغاربية عموما والجزائرية خصوصا هي الحركة الوطنية الّتي عاشها الشعب المغاربي كفترة حاسمة للتغيير والتجديد والنضال والكفاح فمست هذه الحركة الوطنية المغاربيّة كلّ مناحي الحياة الفكرية، وكل المجالات كالمجال السياسي، والاجتماعي والتاريخي والاقتصادي والثقافي لدى الشعوب المغاربيّة الثائرة عن كل السكون الّذي مس كل هذه المناحي والمجالات، وانعكست هذه الحركة الوطنية في مضامين الخطاب الشعري المغاربيّ الحديث عموما وفي الخطاب الشعري الجزائري خصوصا مع الحركة الوطنية الّتي حملتها الثورة التحريرية-الحدث المغاربي الكبير-ليتجسد التعبير عنها في الشعر الحر الّذي يسمو للتعريف بالأدب الوطني.

ويقول أبو القاسم سعد الله: "كانت الثورة الجزائرية قد دخلت سنة 1956م/ مرحلة هامّة من حياتها خصوصا بعد مؤتمر الصومام واندمجت فيها اندماجا كليا بالعاطفة والعقيدة ثم جاءت معركة مدينة واضراب 1957م وتطوّرت الأحداث بسرعة وأصبحت الثورة حديث الجميع، معجبين ومستفسرين وباحثين قوميين وشيوعيين، وبعثيين شعراء وكتابا ونقادا... كما كنت ألتقي في مؤتمرات ونوادي الطلبة العرب بالأدباء الشباب المجدّدين أمثال رجاء النقاش، وأحمد عبد المعطي حجازي، وصلاح عبد الصبور ومحمّد الفيتوري وغيرهم."[7] وكانت حركة الشعر الحرّ المغاربيّ وليدة فكر تحرري ثائر لا وليدة التقليد والمحاكاة فهي توحي بتطلعات آفاق مستقبلية للشعوب المغاربيّة، ورغم ذلك لا ننكر أن الحركة الأدبية في عمومها ذات تأثير وتأثر على المستوى القريب بين أبناء العصر الواحد كحركة الشعر الحر في المشرق وأثرها على المغرب، وكذلك كأثر حركة الشعر الحرّ في الغرب على العرب، أو على المستوى البعيد كأثر الشعر العمودي القديم على الشعر العمودي الحديث والمعاصر.

1-من الخطاب الشعري المغاربيّ إلى الخطاب الشعري العالمي: وتُبَيِّنْ الحركة الأدبيّة المغاربيّة أثرها على الآداب العالميّة؛ حيث حظي ديوان (النصر للجزائر) بترجمات عديدة منها إلى اللّغة الروسية والفرنسية، فيذكر أبو القاسم سعد الله: "ومهما كان الأمر؛ فإنّ (النصر للجزائر) قد ترجم إلى عدة لغات ومنها اللّغة الروسية فقد ترجمه إليها الأستاذ كراميوف، ونشره بموسكو سنة 1961م، وقدم له بمقدمة نشرت أيضا بالعربيّة، والفرنسية... وهو مُترجم إلى الفرنسية جزئيا أو كليا."[8] بهذا المعطى الشعري تلقفت العديد من الشعوب الخطاب الشعري المغاربيّ الحديث، فكان بحق أبو القاسم سعد الله الشاعر الجزائري الثائر على قيد الوزن والقافية، وعلى قيد الاستعمار والدمار، فحظي الخطاب الشعري المغاربيّ رواجه في الخارج، وأخذه العديد من المريدين بأنّه النموذج المثالي والأثر المخلد في الذاكرة على كلّ اضطهاد وكبت للحريات فاستقبلته العديد من الشعوب بأنّه الخطاب المنادي للحريات والتطلعات الثقافيّة والفكريّة والاجتماعيّة.

ثانيا: قراءة في مضامين الخطاب الشّعري المغاربيّ الحديث: شكل الخطاب الشعري المغاربي الحديث نموذجا يقتدى به في المحافل الدولية خاصّة لدى الشعوب العربيّة، وبالعموم لدى الشعوب الغربيّة، فكان بحق يعبر عن طموح وآمالي الشعوب وتطلعاتها المستقبلية، وخاصة تلك القارة الأفريقية الناهضة باسم السلام والاستقلال. فيقول أبو القاسم سعد الله في قصيدة

(تضامن الشعوب) أرض الأحرار:
إليك السلام يا شمال إفريقيا
الّذي يتلقى ضربات السلاح
والتحيات لبلادك الثلاثة
الصامدة للبطش والعدوان
وباسمك يا شمال إفريقيا أحيي
كلّ البلاد الّتي لا تقهر
أحيي كفاحك الباسل
وأحيي أولئك الّذين يثيرون الغضب
وأولئك الذين غيبتهم الحرب.
وأنشد للأحياء الّذين يحملون وهم واقفون
وللأموات الّذين يملأ أفواههم التّراب
وأتلقى في أحضاني بالعناق
كلّ المواليد الجدد البازغين من الأعشاش
ايه يا مواليد تونس والجزائر ومراكش."[9]

حمل الخطاب الشعري المغاربي وحدة الشعوب المغاربيّة، الّتي تناشد سلام العالم، وتناشد مرة أخرى شعوب العالم من أجل تضامن إنساني، لكلّ الشعوب الّتي ترفض الاستعمار، وتنتج وتبنى وتتطلع إلى مستقبل أفضل تجمعها اليوم وحدة الإرادة في النضال من أجل حماية السلام واحترام سيادة الدول الضعيفة والقوية الصغيرة والكبيرة.

ويذكر أحمد توفيق المدني في مقدّمة الديوان: "والثورة الجزائرية تتناول كلّ مناهج الحياة في الحاضر والمستقبل هي ثورة في السياسة، وثورة في الدّين، وثورة في الاقتصاد، وثورة في الثقافة، وثورة في ميادين الاجتماع، فمن تأمل قصائد ومقطوعات شاعرنا الناشئ الثائر رآها تعبر عن جميع تلك الأحاسيس وتختلج بكلّ هاتيك المشاعر، وتتناول بيد الفنان الملهم مختلف عواطف الشعب وزفراته وآلامه وعذابه وآماله، فتصوغها دون تكلف شعرا ساميا، إن لم يرض كلّ جزائري عن ألفاظه وموازينه وقوافيه، فأنا أؤكد أنّه يعبر أصدق تعبير عما تجيش به نفس كلّ جزائرية، وكلّ جزائري، وجميعهم جنود هذه الثورة الجامحة وأعوانها."[10] فيقول أبو القاسم سعد الله:

أترانا لو رضينا بحياة الذل والعيش المهين
فتضرعنا وقبلنا النعال وكان مدمعنا هتون
نعصر الرحمة من قلب الجلاميد ونستجدى المنون
أترانا نمنح الحقّ، ونعطي عيشنا الحر السجين؟"[11]
ويقول أبو القاسم سعد الله أيضا:
لتمضي السنون، وتسحب خطاها
إلى منتهاها
فإنا نسير
على متنها، أو نطير
نصارع أيامها العاصفة
بأرواحنا الماردة
فداء المصير
مصير الخلاص."[12]

وبهذا يتبيَّن وحدة شعب مغربية ملتئمة في وحدة عربيّة فيذكر أحمد توفيق المدني: "والغد المنشود هو اتحاد المغرب العربيّ، والغد المنشود هو الجزء الثّاني من ديوان سعد الله يسجل لنا فيه انفعالات النفس الجزائرية الأبيّة في عهدها الحر المنشود عهد الاستقلال والكرامة والعزة."[13]

ويقول أبو القاسم سعد الله في قصيدة (الثأر المقدس) من الديوان:

يا بلادا خضّب النصرُ ثراها******أوقدى الشعلة فالكلّ وراها
كتلة لم يفصم الظلم عـراها******ثأرنا الدامي لســـــراها

لن يجف الجرح أو يــلتئم******جرحنا القاني الّذي يحــتدم
أبدا تنهال منه الحمــم******إنّه نار وريح ودمـــــا."[14]

ثالثا: قراءات في الأنساق الثقافيّة وأبعاد الهوية في الموروث الشعري المغاربي: تميز المغرب العربيّ بعد الفتوحات الإسلامية بالموروث الثقافي الإسلامي؛ ألاّ وهو تعلم وتعليم اللّغة العربيّة، وحفظ القرآن الكريم، وكان القرآن الكريم أساسا للتعليم في الجزائر، وكذلك الحديث النبوي الشريف، وكذلك أيضا تعلم وتعليم العلوم العربيّة والإسلاميّة، يقول أبو القاسم سعد الله في قصيدة (طريقي من ديوان الزمن الأخضر):

إنّ هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقا....
فقد اخترت طريقي
يا رفيقي."[15] وبفعل بعض الازمات الّتي خضع لها المجتمع المغاربي والجزائري خصوصا ظهرت اختلافات على مستوى هذه الأنساق الثقافية، وأبعاد الهوية، فيقول أبو القاسم سعد الله في كتابه (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث): عُرِفَ العهد العثماني في الجزائر بالركود الثقافي شأنه في بقية البلاد العربيّة، فلم تكن هناك حركات تجديد فكرية، ولا انتفاضات علمية ذاتية أو متأثرة بالبلاد الأوروبية ورغم أن العربيّة ظلت لغة التعليم ولغة الشعب، فإنّ الدولة اتخذت التركية لغة رسمية، ومن جهة أخرى سيطرت اللّغة الخليط (لغة فرانكا) على التبادل التجاري، فكان إنتاج اللّغة العربيّة يكاد ينحصر في الموضوعات والتعليمية وقليل من الشعر."[16] فقد كانت ويلات المغرب العربي من الاستعمارات أزمة كبرى من استعمار لآخر عبر حقب تاريخية متعددة، عرف بها المغرب العربيّ بالكفاح والصمود والمواجهات الدامية بالدماء من أجل الهوية الدينيّة الإسلاميّة العربيّة وموروثها الثقافي، وقد عبر عن ذلك أبو القاسم سعد في ديوان النصر للجزائر في قصيدة بربروس:

أجب بربروس!
أشعبا تعذبه أم ذباب
أقلبا تحطمه أم حجر
وماذا؟ أأنت الجحيم الّذي لا يطاق
أباستيل أنت مليئا جثث
مليئا عفونة مليئا قيما..."[17] ويتابع في قصيدة قوله عن الشعب الجزائري الصامد ولا يقبل إلا نيل الحرية وبالسلاح والنار ولا يأبى الخطورة ويواجه كلّ ذلك بالتضحية وتقديم النفس لها.

وهيهات يا ألف قفل حديد
ويا ألف سوط شديد
ويا ألف زنزانة مظلمة
ستنهار جدرانك الشامخة

وأقفالك المحكمه
كأمس البعيد
بأسلحة الظافرين
بأيد غلاظ شداد ب
بأدي الجموع الغضاب
تماما، كأمس البعيد
فأصبحت شيئا من الذكريات
ستغدو من الذكريات."[18] ويقول في قصيدة (شاعر حرّ):
النار رمز جهاده******والنور لون وجوده
والحب ملء فؤاده****واللحن ملء قصيده
يصوغ للناس شعرا*****من دمّه ودموعه
ويسكب الشوك عطرا***لوطنه وجموعه."[19]

رابعا: الخصائص اللّسانيّة في الخطاب الشعري المغاربي: لقيت الحركة الأدبيّة تطوّرا على مستوى مسارات الأدب عموما، فقد شهد العصر الحديث والمعاصر تطوّرات وتغيرات على الصعيد الأدبي العالمي في جنسيه الشعري والنثري، ومن أهم السمات الّتي حظي بها الشعر من تطوّرات عن الشعر القديم في عمومه، وليس كما فعل ذلك أصحاب التجديد كبشار بن برد أو أبو نواس في التجديد الشعري العربي على مستوى الموضوعات بل على مستويات أكبر من مستوى التجديد في الموضوعات، فقد مست الحركة الشعريّة الحديثة خصائص فنّية لسانيّة في الخطاب الشعري، وعلى رأس هذه التطوّرات والتغيرات ما عرف بالشعر الحرّ وهو التحرر من قيد الوزن والقافية، والأكثر من ذلك جاءت نظريات أدبية ونقدية ترفض بعض الأغراض الشعرية الّتي ترى فيها أنّ الشعراء غير صادقين بهذه الأغراض، "تلك النظريّة الّتي تقتضي بإخراج شعر المدح والرثاء والهجاء؛ لأنّه ليس من وراءه فائدة اجتماعية؛ ولأنّ المادح والراثي، والهجاء، لا يمكن أن يكونوا معبرين عن مشاعر صادقة، وينص محمّد الهادي السنوسي بأنّه معجب برأي جبران هذا، ومن ثم فهو يخرج من ديوان شعراء الجزائر أشعار المدح والرثاء والهجاء..."[20]

وكانت هذه الحركة الأدبيّة الثائرة على البهرجة اللفظية والزخرف البديعي، والخيالات المفرطة في التصوير البعيد عن الواقع. ويرون بأنّ الخطاب الشعري هو المبني على الصدق الشعوري والتعبير الحقيقي عن الواقع مباشرة، ومما يعالج قضايا اجتماعية إنسانية لا ذلك الخطاب المحدق في الغزل واللهو والمجون، ومن الخصائص اللّسانية في الخطاب الشعري الحديث عموما والمغاربي خصوصا الابتعاد عن الابتذال اللّفظي التصويري، ومحاولة وصف الوقائع بالألفاظ البسيطة لا الغريبة المجهولة البعيدة المعنى القريب من القارئ من أجل وصول الرسالة إلى متلقيها، فكان الخطاب الشعري المغاربي عموما يتصف بهذه السمات، وبالخصوص عند

النظر في ديوان أبو القاسم سعد الله فإنّها تبرزُ بشكل أكثر وضوحا في معجمه، وصيغه، واستعاراته، وكناياته، وألفاظه، وتشبيهاته، ومجازاته وجزالة ألفاظه البسيطة الموحية المعنى وإطارها العام. كلّ هذه السمات الفنية والخصائص اللّسانية انتشرت بشكل أكبر بين الشعراء الجزائريين مع حركة الشعر التحرري الّذي لم يكن حركة تحررية فكرية قط بل كان حركة تحررية للبلاد والعباد. فيقول أبو القاسم سعد الله: " غير أنّه يمكننا أن ندعي بأنّ هناك شعرا لا يعتريه القدم والذبول بل يظل محتفظا برونقه وجدّته مهما طال عليه الزمن، ونعني به **الشعر الصادق الإحساس المعبرعن انفعال إنساني عميق بأدوات قادرة على توصيل ذلك الإحساس**، وهذا الانفعال إلى الآخرين، وليست هذه الأدوات إلاّ ما اصطلح عليه الناس باللّغة والموسيقى الشعريّة والصورة والخيال؛ فإذا ما توفرت هذه العناصر في شعر ما فإنّه لن يخضع لقوانين الفناء بل سيكون شعرا حيا خالدا وجديدا على الدوام."[21] فالحقيقة أنّ الشّعر بدأ يميل إلى الضعف منذ القرن الرّابع الهجري بغض النظر عن ظهور شعراء عظام في هذا القرن وما تلاه، بسبب تراجع الثقافة العربيّة عن مكانتها العالية، وافتقارها قوة الدفع من السلطات الحاكمة، والضعف السياسي الّذي دب في جسم الدولة المقترن باضطراب اقتصادي، واجتماعي، وفكري وبسبب انحصار الشّعر العربيّ في قوالب وموضوعات محدّدة، ساعدت إلى حد كبير في تكرار صوره وأخيلته ومعانيه.

واجتمعت كلّ هذه الظواهر معا لتدفع الشّعراء إلى الاهتمام بتوافه الأشياء وبالظواهر السطحية والمعاني العامّة الّتي لا تحتاج إلى عمق تفكير أو صدق انفعال."[22] لهذا جاءت حركة الشّعر الحرّ في المشرق العربيّ والمغرب العربيّ كذلك ضمن فترة متزامنة موحدة من حركة التجديد والتغيير في الشّعر العربيّ وما أصابه من انكسار وانحصار للعديد من الأسباب وحدة في حركة الشّعر العربيّ بين الشرق والغرب. ونفصلها بالآتي:

1-تراجع الثقافة العربيّة عن مكانتها العالية؛

2-الحركة الاستعمارية على البلدان العربيّة؛

3-الضعف السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والفكري...؛

4-محاكاة الشّعراء المحدثين للشعر العربي القديم في قوالب وموضوعات محدّدة، ساعدت إلى حد كبير في تكرار صوره وأخيلته ومعانيه.

ورغم كلّ هذه الأسباب وغيرها لم يكن بعض الشّعراء في هذا العصر الحديث وما تلاه من العصر المعاصر بمنأى عن حركة تجديد الشعر فيه وبعث الروح الجديدة من جديد بما عرف بشعر التفعيلة أو الشعر الحرّ، هذه الحركة الّتي سارت وفق طريقين طريق المشرق والمغرب العربيّ لتحدث بذلك متغيّرا جديدا في الشعر العربيّ الحديث وعلى رأس هؤلاء ما نقدمه في هذه المداخلة للشاعر الناقد أبو القاسم سعد الله أحد رواد الحركة الجديدة في الشعر العربيّ عموما والشعر المغاربي خصوصا كما سبق لنا ذكر ذلك ونقف على هذه النماذج الشعرية الّتي أصدرت ما بين 1945م-1955م، حين كانت الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي هذه الأخيرة الّتي فجرت العديد من القرائح الشعريّة من داخل الجزائر وخارجها ممن أبدع حركة الشعر الحر وممن كان محافظا على ضوابط الشّعر العربي القديم.

ونضع أيدينا على إحدى إبداعات شاعرنا أبو القاسم سعد الله الّتي تميزت بالتجديد الموضوعي والفكري للواقع المعاش لا المحاكاة للشعر العربي القديم، فيقول في قصيدة (ثورة الأرض):

حتّى م افترش الحصير
وأساكن الكوخ الحقير
وأساهر الحرمان والألم المرير
وتلوك جنبيَّ الخشونة
ويحيطني قبو العفونة
في ظلمة عمياء تطفح بالخشاش."[23]

ويقول من نفس القصيدة:

فالأمس لوح أسود
واليوم موج يصخب
وغد طريق مبهم
وأنا هنا
لا شيء غير كآبة حيري يصاديها الضّنى
أين الغنى؟
والثروة المعطاء والعيش الرغيد
أين الهناء؟
ما ذقته قط ولو في يوم عيد."[24]

الخاتمة: تميزّت الحركة الشّعريّة الجديدة المغاربيّة عموما والجزائرية خصوصا بالحركة الوطنية النضالية الّتي عاشها الشعب المغاربي كفترة حاسمة للتغيير والتجديد والنضال والكفاح فمست هذه الحركة الوطنية المغاربيّة كلّ مناحي الحياة الفكرية، وكل المجالات كالمجال السياسي، والاجتماعي والتاريخي والاقتصادي والثقافي لدى الشعوب المغاربيّة الثائرة عن كل سكون الّذي مس كل هذه المناحي والمجالات وانعكست هذه الحركة الوطنية في مضامين الخطاب الشعري المغاربيّ الحديث في وجه الاستعمار والاستبداد عموما وفي الخطاب الشعري الجزائري خصوصا مع الحركة الوطنيّة الّتي حملتها الثورة التحريرية-الحدث المغاربي الكبير- ليتجسد التعبير عنها في الشعر الحر الّذي يسمو للتعريف بالأدب الوطني.

وكانت حركة الشعر الحرّ المغاربيّ وليدة فكر تحرري ثائر لا وليدة التقليد والمحاكاة فهي توحي بتطلعات آفاق مستقبلية للشعوب المغاربيّة، ورغم ذلك لا ننكر أن الحركة الأدبيّة في عمومها ذات تأثير وتأثر على المستوى القريب بين أبناء العصر الواحد كحركة الشعر الحر في المشرق وأثرها على المغرب وكذلك كأثر حركة الشعر

الحرّ في الغرب على العرب، أو على المستوى البعيد كأثر الشعر العمودي القديم على الشعر العمودي الحديث والمعاصر.

شكل الخطاب الشعري المغاربي الحديث نموذجا يقتدى به في المحافل الدولية خاصّة لدى الشعوب العربيّة، وبالعموم لدى الشعوب الغربيّة، فكان بحق يعبر عن طموح وآمالي الشعوب وتطلعاتها المستقبلية وخاصّة تلك القارة الأفريقية الناهضة باسم السلام والاستقلال.

لقيت الحركة الأدبيّة تطوّرا على مستوى مسارات الأدب عموما، فقد شهد العصر الحديث والمعاصر تطوّرات وتغيرات على الصعيد الأدبي العالمي في جنسيه الشعري والنثري، ومن أهم السمات الّتي حظي بها الشعر من تطوّرات عن الشعر القديم في عمومه، ولم يكن التجديد الشعري العربي على مستوى الموضوعات قط بل على مستويات أكبر من مستوى التجديد في الموضوعات، فقد مست الحركة الشعريّة الحديثة خصائص فنّية لسانيّة في الخطاب الشعري، وعلى رأس هذه التطوّرات والتغيرات ما عرف بالشعر الحرّ وهو التحرر من قيد الوزن والقافية.

تميز الأدب في العصر الحديث والمعاصر ببروز نظريات أدبيّة ونقديّة عموما، وخصوصا في الشعر العربي الحديث، تلك النظريّة الّتي تقتضي بإخراج شعر المدح والرثاء والهجاء من النّظريّة الشعريّة؛ لأنّه ليس من وراءه فائدة اجتماعية؛ ولأنّ المادح والراثي، والهجاء، لا يمكن أن يكونوا معبرين عن مشاعر صادقة، ويذكر محمّد الهادي السنوسي بأنّه معجب برأي جبران هذا، ومن ثم فهو يخرج من ديوان شعراء الجزائر أشعار المدح والرثاء والهجاء، ورائد هذه النّظريّة الشعريّة جبران الّذي تأثر الشعراء والأدباء والنقاد بنظريته الأدباء والنقاد والشعراء عموما والمغاربة خصوصا.

وكانت هذه النّظريّة الأدبيّة الثائرة على البهرجة اللفظية والزخرف البديعي، والخيالات المفرطة في التصوير البعيد عن الواقع. ويرون بأنّ الخطاب الشعري هو المبني على الصدق الشعوري والتعبير الحقيقي عن الواقع المباشر، ومما يعالج قضايا اجتماعية إنسانية لا ذلك الخطاب المحدق في الغزل واللهو والمجون، ومن الخصائص اللّسانية في الخطاب الشعري الحديث عموما والمغاربي خصوصا الابتعاد عن الابتذال اللّفظي التصويري، ومحاولة وصف الوقائع بالألفاظ البسيطة لا الغريبة المجهولة البعيدة المعنى القريب من القارئ من أجل وصول الرسالة إلى متلقيها، فكان الخطاب الشعري المغاربيّ عموما يتصف بهذه السمات، والخصائص اللسانيّة الحديثة. الّتي تَبْرُزُ بشكل أكثر وضوحا في معجمه وصيغه، واستعاراته، وكناياته، وألفاظه، وتشبيهاته، ومجازاته وجزالة ألفاظه البسيطة الموحية المعنى وإطارها العام. كلّ هذه السمات الفنيّة والخصائص اللّسانيّة انتشرت بشكل أكبر بين الشعراء الجزائريين مع حركة الشّعر التحرري الّذي لم يكن حركة تحررية فكرية قط بل كان حركة تحررية للبلاد والعباد.

وظهرت نظريّة الشعر الحر على أنقاض النّظريّة الشعرية القديمة هذه الأخيرة وبسببها بدأ الشّعر يميل إلى الضعف منذ القرن الرّابع الهجري بغض النظر عن ظهور شعراء عظام في هذا القرن وما تلاه بسبب تراجع الثقافة العربيّة عن مكانتها العالية، وافتقارها قوة الدفع من السلطات الحاكمة، والضعف السياسي الّذي دب في جسم الدولة المقترن باضطراب اقتصادي، واجتماعي، وفكري وبسبب انحصار الشّعر العربيّ في قوالب وموضوعات محدّدة، ساعدت إلى حد كبير في تكرار صوره وأخيلته ومعانيه.

واجتمعت كلّ هذه الظواهر معا لتدفع الشّعراء إلى الاهتمام بتوافه الأشياء وبالظواهر السطحية والمعاني العامّة الّتي لا تحتاج إلى عمق تفكير أو صدق انفعال.

هوامش البحث:

1- أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1986م، ص5.

2- المرجع نفسه، ص7.

3- المرجع نفسه، ص8.

4- ينظر محمّد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنّية، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 2006م ص149-150.

5- المرجع نفسه، ص150.

6- المرجع نفسه، ص151، وينظر: شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر دبلوم الدراسات المعمقة، جامعة وهران، 78، ص54.

7- المرجع السابق أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، ص8.

8- المرجع نفسه، ص10.

9- المرجع نفسه، ص14.

10- المرجع نفسه، ص17.

11- المرجع نفسه، ص21-22.

12- المرجع نفسه، ص22.

13- المرجع نفسه، ص25.

14- المرجع نفسه، ص27.

15- المرجع نفسه، ص36.

16- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، دار الكتب والوثائق الوطنية، الجزائر، 1985م، ص144.

17- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزار الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1986م، ص159.

18- المرجع السابق أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، ص51.

19- المرجع نفسه، ص52-53.

20- المرجع نفسه، ص55.

21- المرجع السابق محمّد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنّية، ص102-102. وينظر جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، بيروت، 1955م، ج3، ص140. وينظر مجلة الشهاب، ج2، م5، 1929م، ص92.

22- المرجع السابق أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، ص7.

23- محمّد مصطفى هدّارة، دراسات في الأدب العربيّ الحديث، دار العلوم العربيّة، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م ص11.

24- المرجع السابق أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، ص63.

25- المرجع نفسه، ص67.